الأدب والنقد في أسبوع

الأستاذ عباس خضر

حول معركة القزويني

قرأت كلمة صديقي الأكبر الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي التي عقب بها على ما كتبته بعنوان « معركة القزويني في الأزهر » وهي المعركة التي دارت ولا تزال دائرة بينه وبين الأستاذ الشيخ محمد خفاجي على كتاب « الايضاح » في علوم البلاغة . وقد صورت المعركة على أنها منافسة بينهما بناء على ماتبادلاه في مناقشاتها المطبوعة من عبارات تدل على أن كلا منهما في رأي الآخر فرض شرحه على الطلاب وحارب شرح الآخر بغية الاستئثار بالكسب المادي . وطبيعي أن يهتم الأستاذ عبد المتعال بنفي ذلك عن نفسه ، ويقرر مايليق به من أنه لا يبغي إلا طريقة يختطها في الإصلاح العلمي ، وقد تلقيت كتابه « دراسة كتاب في البلاغة » شاكرا له تفضله بإهدائه ، وتصفحت الكتاب فرأيت به نقدا لشرح الشيخ خفاجي ، وهو يشير في خلاله إلى تفضيل شرحه على شرح زميله بأنه جرى فيه على طريقة موضوعية تجانب المماحكات اللفظية ، على خلاف زميله الذي عنى بنقل عبارات الحواشي والخلافات اللفظية . أما الشيخ خفاجي فإنه يقر بأنه فعل ذلك بل يفخر به ، وأما الشيخ عبد المتعال فليس جديدا علينا أن نعلم أنه عالم مطلق الفكر وكاتب صاحب رأي ، وأنا لم أر شرحه للايضاح وأعتقد مع ذلك أنه سلك فيه المسلك الذي وصف . ولكني رأيته في كتاب « دراسة كتاب في البلاغة » يعنى بالمماحكات اللفظية بينه وبين زميله ، كما يعنى زميله بها أيضا ، فمن الأمور التي اختلفا عليها الفرق بين كون الموصوف بالفصاحة والبلاغة الكلام وكون الموصوف بها المتكلم ، وهل الإيضاح في « علم » المعاني والبيان أو في « علمي » المعاني والبيان ، وهل كتاب الأطول للسيد أو للعصام ، وذكر الأستاذ عبد المتعال غلطات نحوية وإملائية وقع فيها زميله . وهكذا نرى الأستاذين متأثرين بمماحكات الخطيب والسكاكي وقبيلهما . والمؤسف أن هذه المطبوعات التي يتبادلها الأستاذان يتداولها الطلاب بل هم قراؤها المقصودون ، وما أظنها ذات أثر حسن في نفوسهم ولا في عقولهم . أريد بعد ذلك أن أخرج من هذه الدائرة الضيقة ، دائرة المعركة الأزهرية إلى مجال أوسع يشمل دراسة البلاغة على وجه عام وهي خواطر أثارها في نفسي قول الصديق الأكبر : « وصديقي الأستاذ عباس خضر يرى كما أرى أن هذه الحواشي ومماحكاتها هي التي أفسدت البلاغة . وإذا كان في الإيضاح بعض المماحكات فإنه مع هذا خير ما ألف في البلاغة بعد كتابي عبد القاهر — دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة — لأنه يجري غالبا في طريقهما ، وإن كان متأثرا بطريق السكاكي في تبويب علوم البلاغة وتقسيمها ، وقد عنيت في شرحي له بمجاراته في طريق عبد القاهر ، واختيار ما هو من صميم البلاغة في تلك الحواشي ، وإهمال مماحكاتها اللفظية ، مع التنبيه على ما في الإيضاح من هذه المماحكات »

فأنا وإن كنت أشارك الأستاذ في هذا القدر الضئيل من الرأي إلا أنني أذهب إلى أبعد كثيرا مما يرى . فأنا أعرف الإيضاح وأعرف أن مؤلفه صاحب « التلخيص » بؤرة إفساد البلاغة العربية بشروحه وحواشيه ، وأعرف جناية هذه الكتب — سواء مماحكاتها اللفظية وما يسميه الأستاذ صميم البلاغة — على الملكة البيانية العربية ، وليكن الإيضاح جاريا في طريق دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة في الغالب أو في غير الغالب ، فهل نتخذ بلاغة عبد القاهر نبراسا يضيء زيته في عصر الكهرباء ؟ إني أعلم أن أنوفا ترعد من هذا الكلام .. ولكن مهلا . لقد كان لعبد القاهر فضله التاريخي الذي لا يجحد . كان أول مؤلف مزج النقد الأدبي بالقواعد العلمية وكان صاحب ذوق أدبي في علمه . فجاء مؤلفون من بعده مجردون من ذلك الذوق ، فجعلوا البلاغة علما جافا ومجالا لإفساد الملكة الأدبية بالجدل العقيم والفكر المعقد السقيم . ولا نزال إلى الآن نعاني أعباء هذه التركة وان كان الأزهر يحمل اقدح اثقالها ، لأن رجال التعليم بوزارة المعارف خففوا منها بالتأليف العصري أولا ثم بتعديل مناهجها إلى نواحي أشبه بالنقد والدراسة الأدبية ، ولأن بعض أساتذة الجامعة أو هو أستاذ واحد (الأستاذ أمين الخولي) توجه بها إلى وجهة أدبية نفسية تطابق الدراسات الحديثة .

ولعل الأستاذ عبد المتعال الصعيدي يشير إلى هذه الاتجاهات بقوله في مقدمة كتاب « دراسة كتاب في البلاغة » يصف صنيع الشيخ خفاجي « بل خرج على تقليد عصرنا الذي أحيا دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة بعد أن أماتتها الطريقة التقريرية ، وكان لإحيائها أثر صالح في تهذيب دراسة علوم البلاغة ، ظهر أولا في غير بيئتنا الأزهرية ، ثم أخذ يغزو بيئتنا ويوجهها إلى الإصلاح شيئا فشيئا »

وعلى ذلك نرى أننا نعود إلى طريقة عبد القاهر بأن « نؤدب » علوم البلاغة ، أي نصفها بالصبغة الأدبية . وقد كان من سوء الحظ أن يخلف عبد القاهر أولئك المؤلفون الذين حفظوا البلاغة فتبخر منها ماء الأدب ، ولو كانوا من ذوي الملكة الأدبية لفقهوها وصقلوها وحملوها نقدا أدبيا صرفا ونحن الآن بلغ لغة طويلة لنصل إلى هذا الغرض الذي لم نبلغه بعد إذ أننا الآن عند عبد القاهر فقط !! كأننا نريد أن نثبت أن البلاغة كروية .. ينتهي المسير فيها إلى حيث نقطة البدء ...

سيقول أذكياء بدركون من ذلك ما أرمي إليه : إذن فأنت تدعو إلى نبذ علوم البلاغة جملة واحدة أقول : ولم لا ماد منا نهدف إلى الملكة اللغوية الأدبية التي نقتدر بها على الكتابة والقراءة والنطق بلسان عربي أدبي جميل؟ انظروا إلى المعاصرين من كتابنا « البلغاء » الذين لم يشتغلوا أنفسهم بتلك العلوم فمنهم من مر بها ومنهم من لم يكن سيره عن طريقها — كم من أولئك الذين عكفوا على دراسة علوم البلاغة وعنوا ببعض الخلافات والمنازعات بين الخطيب والسكاكي والجرجاني — يستطيع أن يجاري كتابنا في « بلاغتهم » التي تكون هذا الأدب العربي الحديث ؟

أقول ذلك مادامت الوجهة هي الملكة اللغوية الأدبية ، أما دراسة التاريخ والوقوف على تطورات الحركات العقلية فشيء آخر ، ولكن يجب الالتفات إلى أن هذه الدراسة لا تتطلب الانصراف الكلي إلى الجزئيات والتفصيلات ، وهي وإن كانت ملاحظها العامة مطلوبة في المعاهد العالية إلا أنها في المدارس العامة عبث أي عبث .

يوسف وهبي والفرقة المصرية

قامت في الأسابيع الأخيرة — ولا تزال ، ضجة حول استقالة

كشكول الأسبوع

□ كان المرحوم الأستاذ محمد شريف بك قد أخرج جزءين من تحقيقه لديوان ابن الرومي وقد نمى إلى اللجنة المؤلفة لإخراج هذا الديوان بوزارة المعارف أن صاحب مكتبة بإحدى مدن الشام لديه أصول الجزء الثالث التي كان شريف بك أعدها للطبع . وقد اشتملت هذه الأصول ضمن مكتبة الفقيد التي اشتراها صاحب المكتبة . وتتجه النية إلى شراء هذه الأصول لطبعها أو الانتفاع بها في إخراج الديوان

□ تنتهي الدورة السادسة عشرة لمجمع فؤاد الأول للغة العربية في آخر مايو الحالي ، وتستمر عطلته الصيفية أربعة أشهر ، ثم يستأنف انعقاده في أكتوبر القادم ، ويعقد المؤتمر السنوي في يناير سنة ١٩٥١

□ ذكرنا قبلا أن معالي الدكتور حامد زكي سيخلف معالي الدكتور طه حسين بك في رياسة وفد مصر بمؤتمر اليونسكو . ونذكر الآن أن معالي وزير المعارف سيبقى في المؤتمر إلى يوم ٢٦ مايو ثم يعود إلى مصر ويحل محله وزير الدولة . وقد تحدث معاليه إلى مندوب الأهرام فقال إن نية وفد مصر معقودة على إثارة مسألة هامة في المؤتمر ، وهي مسألة جعل تعليم اللغة العربية إجباريا في بلاد إفريقية الشمالية .

□ من المسائل التي بحثها مؤتمر اليونسكو في دورته الحالية ، تبادل الأساتذة بين الدول الأعضاء لتدعيم التعاون الثقافي بينها وسد النقص الموجود في بعض هيئات التدريس الجامعي في بعض الدول ، ومشروع ترجمة أمهات الكتب من لغة إلى أخرى ، وقد ذكرت مصر في تقريرها أنها بدأت فعلا بترجمة بعض الكتب من اللغات الأجنبية إلى العربية والعكس ، ومن هذه المسائل أيضا النهوض بشئون الإذاعة والصحافة والمسرح والسينما والموسيقى والمتاحف والمكتبات ، باعتبارها وسائل للتثقيف العام .

□ اجتمع يوم الأحد الماضي مجلس كلية دار العلوم لإجراء عملية انتخاب عميد للكلية ، وقد أسفرت النتيجة عن حصول حضرات الأساتذة إبراهيم مصطفى بك وحامد عبد القادر وإبراهيم اللبان على أكثر الأصوات . وسيختار معالي وزير المعارف واحدا منهم طبقا لقانون الجامعة .

□ يعرض على مجمع فؤاد الأول للغة العربية في جلسته القادمة نموذج من « معجم فيشر » يمثل طريقة هذا المعجم وفكرته ، وذلك للموافقة على الضروع في طبع الجزء الذي كان قد أعده الدكتور فيشر من هذا المعجم .

الأستاذ يوسف وهبي بك من الفرقة المصرية ، تلك الاستقالة التي أريد عليها ، إذ أبلغه أولو الأمر رغبتهم فيها . وقد تكاثفت في جو هذه الضجة عجاجات أثارتها الجملات المتبادلة في الصحف والجملات بين الأستاذين زكي طليمات ويوسف وهبي . وليس عجيبا أن يختصم هذان الأستاذان ، وإنما العجب أن يتفقا وأن تجمعهما فرقة واحدة ، فكل منهما في الفن المسرحي مذهب وأسلوب يختلفان عن مذهب الآخر وأسلوبه ؛ فهما ضدان من الهدوء والصخب ، والتحليل والتهويش ، والخاصية والعامية ؛ وهل يجتمع الضدان؟

وقد تعرض بعض الصحف الأسباب التي دعت إلى إخراج يوسف وهبي من الفرقة المصرية ، أو التي يظن أنها أسباب . وتجمع الكلام في هذه النقطة عند الرحلة التي قامت بها الفرقة أخيرا في بلاد المغرب ، فذكر أن يوسف وهبي خطب في تونس فخلع مصريته وانتسب إلى تونس ، وأنه تدخل في الأسماء التي منحت أوسمة تونسية ، فغير فيها وبدل حتى طلب أوسمة لبعض المتعهدين من اليهود وأهمل بعض ممثلي الفرقة ، وأنه تعمد إطالة الرحلة ليكسب من رواياته التي ينال فيها ٢٥ ٪ من مجموع الدخل ومن بدل السفر الذي يمنح له خمسة جنيهات في اليوم الواحد ، وأنه أرسلت إليه برقية من مصر للعودة فتباطأ ... الخ

وقد يكون ذلك الذي ذكر أو غيره ، أموراً مباشرة استند إليها لإبعاد يوسف وهبي عن الفرقة المصرية ، ولكن السبب الحقيقي أعمق من كل ذلك وأبعد ، فليس ذلك المسلك وليست تلك التصرفات جديدة من الأستاذ يوسف وهبي بك ، فإن كان قد قام برحلة شهور إلى شمال إفريقية ، فقد قام من قبل برحلة أطول منها في مصر ... صنع فيها ما صنع في الرحلة المغربية بل أكثر! إذ استغرقت الرحلة المصرية عامين قدم فيهما رواياته القديمة ، وهي نفس الروايات التي أخذها معه إلى بلاد المغرب ، وهي أيضا نفس الروايات التي يختص فيها بخمسة وعشرين في المائة من دخل « شباك التذاكر » ودأب في الرحلة المصرية كما فعل في الرحلة المغربية على إبراز نفسه واختصاصها بأكبر نصيب من الإعلان والدعاية إلى جانب النصيب السادي الأكبر الذي يستولي عليه من مرتبه الكبير وربع الدخل العام ، وطغى في كل ذلك على زملائه من ممثلي الفرقة وممثلاتها ، وفيهم أعلام ونبغاء في فن التمثيل ، وهم جميعا مغبونون في أرزاقهم لا يتقاضون من الفرقة ما يقوم بحاجتهم ويحفظ كرامتهم ، بل طغى الأستاذ يوسف وهبي بك على الفرقة كهيئة معنوية فجعل نفسه الفرقة ومديرها العام!

وكان يمكن التغاضي عن ذلك لو أن يوسف وهبي قدم عملا فنيا يضاف إلى الانتاج المسرحي ويعمل على احياء فن التمثيل وتقدمه ، ولكن الذي حدث أنه جعل يكرر المجهود الذي قام به منذ ثلاثين سنة على مسرح رمسيس ، ذلك المجهود الذي يقوم على تملق جماهير العامة باثارة العواطف على طريقة وعظية أو « مأساوية » بعيدة عن هدف الفن الخالص ، وأقل ما فيها من مجافاة الفن البعد عن الصدق ، فكلنا يعرف النغمة التي ظل يضرب عليها يوسف وهبي في مسرحياته وأيضا سينمائياته ، وهي إيجاد مفارقات بين الأغنياء والفقراء ، وتصوير الأولين ظالمين مستبدين والآخرين ملائكة برة على طول الخط ، كما في قصص أبي زيد الهلالي من حيث إنه رجل مثالي لا يخطىء ولا ينهزم على حلاف خصمه الزناتي خليفة الذي تسند إليه كل نقيصة لأنه خصم أبي زيد!

ويوسف وهبي ليس من الفقراء ، لا أصلا ولا فصلا ، وإنما هو يعشق الجمهور ، فهو يخلع أرستقراطيته طلبا لعطف الجمهور في مصر كما خلع مصريته أمام الجمهور في تونس ، بل هو يخلع الفن الرفيع ويصدم أذواق المثقفين لاجتذاب طبقات أخرى من المتفرجين . وهو يعتبر مقياس النجاح — كما قال في مقالاته أخيرا — إقبال هؤلاء المتفرجين وكثرتهم ، فهو عندما يذكر آثاره في الفرقة يجعل في مقدمتها أن الإقبال على مشاهدة الروايات كثر في عهده فزاد دخل الفرقة .

ظل يوسف وهبي يقدم في الفرقة المصرية ذلك المجهود ، ولكن الفرقة المصرية لم تكن لمثل ذلك ، فالغرض الأسامي منها ترقية التمثيل العربي ، وليس ذلك من ترقيته في شيء ، ولو أن مدار الأمر على الرواج وكثرة الرواد لكان في مثل « شكوكو » غناء وجدوى أكثر من الأستاذ يوسف وهبي بك . ووزارة المعارف — مثلا — تترجم إلى اللغة العربية أمهات الكتب العالمية التي لا يقبل الجمهور العادي على قراءتها ، ولو أنها أرادت